

الرافعي

في ذكره الأولى

للاستاذ محمد سعيد العريان

« نسي الكلمة التي أذاعها الأستاذ محمد سعيد العريان من محطة الاذاعة الفلسطينية بالقدس في مساء الاثنين ٩ مايو سنة ١٩٣٨ بمناسبة تمام سنة على وفاة فقيد الأدب العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي »

—>>><<<—

سيداتي ، آنساتي ، سادتي

سلام الله عليكم أهل هذه الأرض الطيبة ... وممطرة ،
وشكراً ...

لكأني بكم ترهفون السمع لتسمعوا ما يمكن أن أحدثكم به عن الرافعي في ذكره الأولى ، وما أنا باستطيع في هذه الفترة القصيرة من الزمن أن أبلغ ما أريد وتريدون من الحديث عن الرافعي لم يكن الرافعي أديباً كـبعض من تقرأ لهم من أدباء الصحافة ولكنه كان عالماً من أعلام الأدب ، وإماماً من أئمة الدين ، وبرهاناً من براهين العربية بحال به حين يموّزها البرهان ولقد يكون من فضول القول أن أتحدث إليكم عن أدب الرافعي ، وآثاره الأدبية بين أيديكم وتحت أعينكم ؛ وإنكم لتعرفون أدبه وتعرفونه بأدبه . ولكني قد صحبت الرافعي عمراً من عمري ، فعرفته أكثر مما يعرفه الناس ؛ فليكن حديثي الليلة عن الرافعي الذي عرفته ...

لقد سمعت إسم الرافعي لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً ، لا أكاد أفهم ما يأتي إليّ ، سمعت به وأنا طالب في الصفوف الأولى ، فسمعت اسماً له جرس ورنين ، وله نشيد تنجاوب أصدائه في جوانب نفسي ، فحبّبت إليّ من ذلك اليوم أن ألقاه ...

وقال لي رفيقي : « وى ! أتعرف من ذلك الذي أخذت عليه الطريق عامداً ؟ » قلت : « صه ، لا يسمعك فيسوء في جوابه ! » قال : « لا عليك ! إن في أذنيه وقرأ فلا يسمع ! » وتبدلت في نفسي صورة بصورة ، وأحسّ ألم ليحل في نفسي

من بعده ألم آخر ... وعرفت وقتئذ لماذا لم يرفع عينيه إليّ ولم يرّد التحية ...

ولقيته بعد ذلك مرّات كثيرة في الطريق ، وفي القهوة ، وفي السبا ؛ وقرأت له مرّات أكثر في الكتب ، وفي الصحف وفي المجلات ، وعرفته ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ، ولكني لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد هذه الحادثة بعشر سنين ... حين جلست إليه لأول مرة في دار كتبه من داره ، عرفته على حقيقته وفطرة نفسه ، فكأنني لم أعرفه قبل ذلك اليوم ... وما فارقته من بعد حتى فرق بيننا الموت . رحمه الله !

إنني لأحس حين أذكره الساعة كأنني لست وحدي ، وكأن روحاً حيوية تطيف بي وتوف حولي يجناحين من نور ، وكأن صوتاً ندياً رفيع النبرات يتحدث إليّ من وراء الغيب حديثاً أعرف جرسه ونغمته ؛ وكأن عينيّن تطلان عليّ من عالم غير منظور لتأمراني أمراً وتلهمني الفكر والبيان ؛ ولكني لا أرى ؛ ولكني لا أسمع ؛ ولكني هنا وحدي ، تنفّسان الله كرى فتخيّل إليّ ما ليس في دنياي . هيهات هيهات لوم الأمانى !

لقد كان هنا صوت يتجاوب صدها بين أقطار العربية . لقد كان هنا إنسان يملأ فراغاً من الزمان . لقد كان هنا قلم يصير صرياً فيه رنات الثاني ، وفيه آثات الوجع ، وفيه همسات الأمانى ، وفيه صرخات الفزع ؛ فيه نشيج البكاء ، وفيه موسيقى الفرح .. خفت الصوت ، ومات الإنسان ، ونحط القلم ؛ ولكن قلب الشاعر مازال حياً ينبض ، لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء في كل يوم يموت أديب من أدباء العربية وينشأ أديب ؛ فأن ، أين الأديب الذي يقوم لا كان يقوم له الرافعي ؟ أين ... أين الأديب الذي ينتدب بعد الرافعي ليقف لكل من يحاول التفحيم على قدس القرآن ؟ أين ... أين الأديب الذي يقف قلبه وبيانه للدفاع عن العرب والعربية والاسلام ؟ أين .. أين الكاتب الألمي الذي يصور طهر الحب ، وسمو الانسانية ، وآلام البشرية وأفراح الحياة ، فتنبثق نوراً في كل قلب ، وتتفجر شعوراً في كل وجدان ؟ أين خليفة الرافعي الذي يقوم على سدّاد هذا الثغر الممثل ؟ أين حامل اللواء ، وأين صاحب القلم ؟

لقد كان الرافعي عصراً بتمامه من عصور الأدب ، وجيلاً
بناسه في تاريخ العرب ، وفصلاً بمتوانه في مجد الاسلام

كانت الدنيا تموج من حوله بأناسها وحوادثها ، وتضطرب
حواليه في أمانها ونوازيها ، وتصطبغ في محيطه بشهواتها
ونوازعها ؛ وهو وحده يمشي من هذا المحيط المضطرب المائج
المضطرب في دنيا وحده لا يسمع إلا همسات روحه ، ولا يحس
إلا خلجات قلبه ، ولا ينظر إلا الهدف الذي يسعى إليه . وهياً
القدر بوسائله العجيبة لهذه الوحدة العقلية منذ صباه حين سلبه
السمع ، فعاش حياته بعمى عن دنيا الناس ، ومضى في طريقه
كما يمضي عابر السبيل : لا يلقى باله إلى شيء مما حوالياً أو يبلغ
إلى غايته ...

لم يكن الرافعي ليعرف شيئاً في سياسة الحكومات العربية
المتعاقبة ، ولكن له هدفاً عاش يسعى جاهداً لتحقيقه : هو أن
يبحث الحمية الإسلامية في نفس كل مسلم ، ويوقظ النخوة العربية
في قلب كل عربي ؛ فكان بذلك رسول العروبة والاسلام إلى
كل مسلم وكل عربي ؛ فلا جرم كان بذلك أحب كتاب العربية
إلى كل مسلم وكل عربي

حياته الأدبية كلها تدور حول هذا المحور ، ومنشأته الأدبية
كلها يسعى بها إلى هذا الهدف ، ومعاركه الطاحنة كلها تنشب
في هذا المترك ؛ وما عادى عدواً قط من أدباء العربية إلا
للدين أو اللغة أو القرآن ؛ وما اتخذ صديقاً من رجال الأدب أو
السياسة إلا للدين أو اللغة أو القرآن

وليس من عجب أن تكون فلسطين هي أسبق بلاد العربية
إلى تجديد ذكرى الرافعي ؛ فقد كانت فلسطين هي أحب بلاد
العربية إلى الرافعي ؛ وما أحسبه كتب شيئاً يتصل بشأن خاص
من الشئون القائمة في بلد من بلاد العربية ، وإن له في فلسطين
لمقالات يذكرها كل عربي في فلسطين !

لقد حاول كثير من مؤرخي الأدب أن يتحدثوا عن الرافعي
في حياته ؛ فقالوا شاعر . وقالوا كاتب . وقالوا أدب . وقالوا عالم .
وقالوا مؤرخ . ولكنهم لم يقولوا الكلمة التي كان ينبغي أن يقال :

لقد كان شاعراً ، وكاتباً ، وأديباً ، وعالماً ، ومؤرخاً ؛
ولكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر
والكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ؛ كان هبة الله إلى الأمة
العربية المسلة في هذا الزمان ، لينبها إلى حقائق وجودها ،
وليردها إلى مقوماتها ، وليشخص لها شخصيتها التي تميز باسمها
ولا تمشي فيها ، والتي تعز بها ولا تعمل لها

وكان يشعر أنه وحده في البدان والجميع إلب عليه ، فعاش
حياته كلها بصارع وبكافح ، ويقاوم ويناضل ، حتى خر صريعاً
وفي يده الراية ؛ لم يتركها حتى انزعها الموت من يده !

كثير ما قال عنه أعداؤه وغير أعدائه في حياته : إنه حديد
اللسان . إنه لدود الخصام . إنه لا يري اعتباراً مما تقوم به الصلات
بين أهل الأدب ، حين يزل إلى معترك من معارك النقد ...

صدقوا ، ولكن ... أرأيت معرفة على البدوى الذائر لعرشه أن
يسفك الدم ؟ إنه هو هو ؛ فن ذلك كانت شدته وصرامته ولده
في الخصام : في سبيل القرآن ، ومن أجل العروبة ، ولكرامة
الاسلام . كان ذلك عرشه الذي يحرس عليه أن ينتهك ؛ فن
ثم كانت خصوماته الأدبية كلها فيها معنى الدم !

الدين ، واللغة ، والقرآن ، أو العروبة والاسلام : ذلك كان
مذهبه في الأدب ، وله كان جهاده ؛ حتى في الحب — وللرافعي
حب مشهور — وحتى فيما أنشأ من رسائل الحب ، لم يكن الرافعي
يعتبر إلا مذهباً والهدف الذي يسعى إليه : للدين ، وللغة ،
وللقرآن ...

من شاء فليقرأ كتبه الثلاثة في فلسفة الجمال والحب ، ليرى
فيها كيف تسمو روح العاشق على شهوات البشرية حتى تتصل
بخالقها الأعلى ؛ ثم ليرى العربية أسلوباً جديداً ، فيه عمق الفن ،
ودقة التعبير ، ووضوح الأداء ، حتى في الترجمة عن أعمق
ما يجيش به خفايا النفس الإنسانية

ولأدب الرافعي ميزة ليست لكثير من أدباء الجيل ؛ فهو
أدب عليه طابع الخلود وتلك آداب إلى زوال . هذا أدبه بين
أيدينا وتحت أعيننا ، ما تزال تدفعنا إليه دوافع من أنفسنا في
فترات متقاربة أو متباعدة ، لنميد قراءته وتتملى ما فيه من جمال